الحسن بن محمد الوزان

٩٠١ ـ ٩٥٦ هجرية ـ ١٤٩٥ ـ ١٥٤٨ ميلادية

عصره : ١) التقلبات السياسية

أراد صاحب كتاب القرطاس ان يصف العصر الذي قام فيه بنو مرين ثائرين على الموحدين فقال: « وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين وظهر فيها النقص وتبين أي تبيين وصارت ملوكهم ليس لها حكم في البوادي وانما سلطانهم واوامرهم في المدن خاصة وكثرت الفتن بين القبائل واشتد الخوف في الطرقات والمناهل ونبذ أكثر الناس الطاعة وفارقوا الجماعة وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة فاستوى الدني، والشريف وأكل القوي الضعيف وكل من قدر على شيء صنعه ومن أراد شراً ابتدعه ليس لهم سلطان يكفهم ولا أمير عن غيهم يردهم ويصدهم وكانت قبائل فازاز من جاناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات ويغيرون على القرى والمجاشر مع الاحيان والاوقات فلما رأى الامير أبو سعيد بن عبد الحق ان ملوك الموحدين قد ضعفت دولتهم وضيعوا حرمتهم واهملوا رعيتهم واعتكفوا في قصورهم واحتجبوا عن مهمات امورهم واشتغلوا بالخمور والغواني وتلذذوا باللهو وسماع الاغاني ورأى أن ضلالهم قد تبين وغزوهم على من له قدرة قد تعين وخلعهم من اوجب الواجب لعجزهم عن القيام بالواجب جمع اشياخ مرين وندبهم الى القيام بامر الدين والنظر في مصالح المسلمين فوجدهم الى ذلك مسرعين فسار بجيوشه الوافرة وجنوده المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله وجباله وأوديته ومناهله فمن سارع الى بيعته ودخل في طاعته أمنه ووضع عليه الخراج وتركه آمناً منيعاً ومن حاد ونابذه اباده نهباً وقتلا وغادره صريعا . »

هكذا صور ابن زرع اواخر دولة الموحدين ورسالة بني مرين الى المجتمع المغربي وهو تصوير صحيح لا مبالغة فيه ولا اجحاف ، ولو عاش ابن زرع في اوائل الدولة السعدية واراد أن يصف اواخر دولة بني مرين لما استطاع ان يصفها بغير ما وصف به عصر أواخر دولة الموحدين فبعد ان تقلد بنو مرين الملك واستووا على العرش المغربي قرنين ونصف يحكمون البلاد ويسيطرون على مرافقها الحيوية ولا يتأخرون لحظة عن نجدة اخوانهم بالاندلس كلما غلبوا على امرهم وبعد ان نظموا البلاد تنظيما جديداً واداروها بسياسة جديدة ومهدوا السبل للفكر ان يجول في ميادين البحث فأسسوا عدداً وافراً من المعاهد العلمية لا زالت آثارها تدل على عظمتها وشغف مؤسسيها بالعلم والمعرفة ونشطوا الادب ومختلف الفنون بعد ذلك كله حل عصر الاضطراب السياسي واذا حل عصر الاضطراب السياسي في امة فسرعان ما يختل سيرها الى الامام ولا تقوى أن تواصل تطورها الا بدولة أو حكومة فتية لها من الاستعدادات ما يؤهلها ان تسيطر على الموقف بحزم ودراية .

وبنظرة وجيزة على حوادث العصر الذي عاشت فيه هذه الشخصية المتحدث عنها في هذه السطور ندرك أي اضطراب كانت تعانيه البلاد المغربية وأي فوضى كانت تتخبط فيها على اثر ضعف الادارة المرينية ومغادرة البقية الباقية من المسلمين لارض الاندلس بعد ان اكتسحها الاسبان واستضعف قوة المسلمين وسولت له نفسه ان يطمع في الضفة المقابلة لها وحرك ذلك الطمع نفسه الدولة البرتغالية نظراً لما وصلها من حوادث هذه البلاد وثوراتها وعدم وجود

أية شخصية تدير شؤونها بقدرة فاستولت في سنة ٨٩٤ على أنفا واصيلا وفي ٩٠٧ استولت على البريجة وبنوا مدينة الجديدة ثم واصلوا استيلاءهم على سواحل سوس وبنوا حصن فونتى قرب أكادير ولم يترددوا ان يمتلكوا ثغر اسفي ويزحفوا على الاثر الى ازمور والمعمورة ثم خلال هذه الاثناء تنشب الحرب بين بقية الوطاسين المرينيين وبين أبي العباس أحمد السعدي .

هكذا كانت حوادث هذا العصر فالثورات في الداخل تتوالى والاجانب يغيرون على الدولة ويقصون اطرافها وفي هذا الوقت العصيب تشتعل نار الحرب الاهلية بين دولة شاخت هي دولة الوطاسين المرينيين ودولة تتمخض الحوادث على ظهورها وتمركزها هي دولة السعديين التي ستأخذ بعد ذلك بيد الامة المغربية وتعيد الامور الى نصابها وتطرد الاجانب عن ثغورها وترد الى الدولة المغربية هيأتها وروحها .

٢) الحياة الفكرية

لعل آخر ما يتأثر بالتقلبات السياسية والثورات الداخلية هي الحياة الفكرية فجذورها تتكون وترتكز في عصر الطمانينة وعصر الحضارة لكن ثمرتها الناضجة قد تتأخر الى عصر الاضطراب السياسي وذلك نظراً لشغف الباحثين في فروع العلم وحرصهم على الثقافة لا تابه الحياة الفكرية بالصدمات الاولى السياسية بل تحول بينها لذة المعرفة التي يتذوقها التلاميذ ورغبة البحث التي يحرص عليها الاساتذة ولو الى أجل .

والشخصية التي نشاء أن نتحدث عنها قليلا عاشت في عصر مملوء بالاضطراب السياسي ومع ذلك فقد استطاعت أن تشق لنفسها طريق العلم وان تكون عقلية ممتازة فذة تلقي كل إعجاب في الغرب فلقد عاش في اواخر دولة بني مرين وثقف في مدارسها وكان ثمرة من ثمرات عصرها الذي سادت فيه السكينة وتمت به أسباب الحضارة وإن كنا لا نعرفه إلا من طريق أوربى وكتابات أوربية فإنه يمثل عصراً ذهبياً عظيماً من عصورنا الخالية خير ثمثيل ولا غرو فالعصر المريني من أزهى عصور دول الاسلام تزعمت فيه فاس العلم الانساني وحضارة العلم إذ ذاك وكانت نقطة تلتقى فيها حضارة الشرق الماضية وحضارة الغرب ومصدر الروح بدأ سيرانها يدب في الغرب حيث تسيطر الكنيسة وتراقب كل اتجاه من شأنه أن يزعزع قوتها ومركزها ونفوذها .

ففي العاصمة المرينية : فاس وفي غيرها من المدن المغربية كانت المعاهد تقوم بدور مهم في تغذية العقول وتواصل دراسات قيمة في سائر فروع المعرفة التي اتصل بها العقل الانساني لغاية ذلك العهد فمن تشريع وعلوم الهيآت إلى علوم طبيعية ورياضيات وجغرافية وغير ذلك ولم تكن جامعة القرويين كما هي اليوم تود أن تحصر العلم في مسائل معينة والادب في صور جامدة بل كان المتخرج منها المحصل على إجازة اساتذتها يدرك أكثر ما يستطيع الانسان أن يدركه في ذلك المعهد من صور التفكير وألوان المعقولات وضروب من الادب الناضج .

ونظرة واحدة على قائمة المفكرين الذين ذكرهم صاحبنا الحسن في احد مؤلفاته توضح لنا الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر فقد ذكر اكثر من ستين مفكراً من اعلام المفكرين المسلمين فمن الفلاسفة امثال ابن رشد والفارابي وابن سينا وابن طفيل والطبراني وابن خلدون وابن عمران وموسى بن مامون ومن المتصوفة امثال الغزالي والحسن البصري وابي الحسن الساري والشاذلي وابي حفص عمر ابن فريد ومن الاطباء امثال عبد الله البيطار وابن زهر